الباب الأول

في أصُول الدَّعوة

تمهيد

تاريخ

منذ أكثرمن عشرين سنة دعتني الإذاعة المصرية للتحدث على مَوْجاتها، وتركت لي اختيار الموضوع، فاخترت الحديث عن أبطال العرب.

ولما نظرتُ في أمرِ العرب قديمًا وحديثًا، وجدت أن بطلَ أبطالهم، بل بطل العالم أجمع هو «محمد بن عبد الله» ﷺ، فابتدأت الحديث به، فجاء الفَيْضُ بالسِّيرَة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته العُظْمى، ولم أستطع العدول عنه إلى من سبق أو من لَحِق، فاستمر الحديث فيها يتتابع حتى خرجتُ من مصر سفيرًا لها إلى كثير من أقطار المسلمين، وانقطع ما بيني وبين الإذاعة، ولم أكُنْ قد تناولت إلا بعض نواحٍ لبطل الأبطال.

وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المِذْياع في صفات الرسول الكريم جدير بالجَمْع والنشر، فجمعه وطبعه في كتاب سُمي «بطل الأبطال، أو أبرز صفات النبي محمد».

ثم مضت أعوام عُدْت بعدها إلى مصر، وعادت هيئة الإذاعة المصرية فتفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثي بها، فلم أجِد أحبَّ إلى نفسي من أن أرجع إلى أبطال العرب، وأن يكون جامعُ فضائلهم، بل فضائل الإنسانية كلّها موضوعَ الكلام هذه المرة؛ فكانت العناية بدعائم رسالة محمد وآثارها وانتشارها، وما يستطاع تقديمه لعلاج مشكلات العالم على هداها، وفاض الحديث واتسع له الوقت حتى أَرْبَى على ثلاثين محاضرة، رأيت أن أجعلها أساسًا لهذا الكتاب الذي أرجو أن ينفع الله به في فهم «الرسالة الخالدة» لمحمد بن عبد الله، في عصر الظمأ الروحيّ، والاضطراب السياسي، والمادّية القاسية.

وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها في زمنٍ الناسُ فيه أحوجُ ما يكونون إلى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمَّرتهم الحروب والآلام.

فإذا كان هذا الكتاب شُعاعًا من قَبَس هذا الحق ينطلق في دياجي هذا الليل البَهِيم الذي غمر البشرية، وإذا كان بَسْطُ مبادئ هذه الدعوة يَهدِي إلى طريق وَسَطٍ مستقيم بين هذه المسالك الوعرة

المضلِّلة التي تتخبط فيها شعوب البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة... فإني أرجو أن يكون ما بدا في هذا البحث من فضل الله وفَيْضِ رسوله معينًا على تبسيط مبادئ هذه الدعوة، وبيانها بكيفية ترضي أهل الرأي وتنير طريق العامة.

شهادة الزمان والتجربة

وإني على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لَشاهدٌ بالتجربة والنظر، وقد عشت بين الفقراء والأغنياء، محروم الجاه ومتمتعًا به، وخالطت الخاصة والعامة في المشرق والمغرب، وشاهدت آثار دعوات مختلفة، ونظرت في كتب أقوام كثيرة، فلم أر بناءً أقوى على الدهر، ولا أَرْحَبَ لجَمْع البشرية من ذلك البناء الذي بناه محمد ﷺ!.

حاولَتْ أن تنال منه العرب والعجم، واشْتَطَّ به المتفقّهون والمؤرّخون، والرُّواةُ وأهل الرأي، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة، وتألّب عليه الجاحدون والمكابرون وشوّهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرنًا، فلم يستطيعوا أن يغيّروا وعد الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]؛ فقضى أمرهم جميعًا وبقي أمر الكتاب قائمًا، ولا يزال ذلك البناء على مرّ الأعاصير سليمًا متينًا رحبًا، من نزله كان آمِنًا.

حق من السماء أو من الأرض!

هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله كما نعتقد نحن المسلمين، فيكفي أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله... وإن كانت من «محمد»، كما يقول المنكرون لنبوّته، فنحن على بَيِّنةٍ من أَمْرِنا، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة، ندعو المنكرين لينظروا فيها لا كَدِينٍ، بل كنظريّة تاريخية أتت بأفكار وشرائعَ في السياسة والاجتماع والاقتصاد؛ فسيجدونها بصرف النظر عن معنى التديّن، أُسسًا صالحة لنظام عالَميّ وَسَطٍ بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتطاحن عليها الناس الآن، وسيجدونها حتى على فرض أنها من البشر أصلحَ الدَعَوات وأرشدَها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء، وسيجدون طرائقها كمبادئها، وسَطًا يلتقي الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع، ويعمّ السلام بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم.

فما هي دعائم هذه الرسالة؟

وما هو هُدَاها في الإصلاح والتكَافُل الاجتماعي؟

وما هي سياستها في العلاقات الدولية؟

وما هي نظرتها لأسباب الاضطراب العالمي؟

وما هي وسائلها في البحث عن سَنَدٍ رُوحِيّ للحضارة؟

وما هو النظام العالَمي الجديد الذي يوافق روحها؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقًا وغربًا، قديمًا وحديثًا؟

ذلك ما سنتناوله بعَوْن الله تعالى في أبواب هذا الكتاب وفصوله.

* * *

الدِّعامتَانِ

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين، ينهض عليهما بناؤها، وتتفرع منهما فروعها، ويَصْدُر عنهما معتنقها، هما: الإيمان، والإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]؛ ففي هاته الآيات وأمثالها تحديدُ وِجْهة الإسلام، وتلخيص الدعوة المحمدية: عقائدها وعباداتها وشرائعها، وفيها سرُّ بساطتها وقوتها ورَحَابتها، وسرعة انتشارها بين أهل الرأْي والعامّة من البشر.

* * *

الإيمان بالله الواحد

أصل الأصول

الإيمان بالله بارئ الكون وحده لا شريك له، هو أصل الأُصول في الأديان السماوية، فهو أصل الرسالة المحمدية. هو الينبوع الذي أفاضه الله من قلب محمد عليه الصلاة والسلام باهدى وحقائق الخير والسلام.

هو الصَّدَى العميق لذلك الهاتف الذي ناداه من السماء والأرض:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

خرج «محمد» على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله وحدَه فأنكروها، وأرادُوه على العدول عنها وظنوا به الظنون، فقالوا: ساحر وشاعر ومجنون وكذاب، وساوموه على ترك دعوته بالمال والمُلْك والجاه، وقاوموه واضطهدوه وآذَوْه، فما كان قوله هم إلا أن قال: «والله لو وَضعُوا الشمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أَترُكَ هذا الأمر ما تَركتُه أو أهْلِك دُونَه». فلم يَعدِل بذلك الإيمان الذي اطمأنت إليه نفسه وأَمَرَهُ به ربه، ولا بالدعوة إليه، مُلْكَ الليل والنهار وما فيهما! وكان همه أن يلتقي الناس على عبادة القدير الذي تنزهت صفاته عن الشريك والمثيل.

الدين فطري

والناس من أقدم العصور حَيَارَى يجدون في أنفسهم إلهامًا بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدُّون منها العون، ويستقبلون منها الخير والشر، فيدْعونها خوفًا وطمعًا، ويتلقونها

بالقَرابين والعبادات، ويجدون في الإيمان بهذه القوة التي اختلفوا في تكييفها سَنَدًا ومَلَاذًا من رهبة القُوَى المادية في الكون، وسَلْوَى وعزاءً عما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها.

شعورٌ فِطْرِيٌّ قوي في نفوس البشر يدفعهم إلى عبادة القوة. وليس أبدعَ من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله في قصة اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الله كما وردت في سورة الأنعام:

البحث عن الله

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

هكذا تدرج عقل إبراهيم في الاهتداء إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة في النجم والقمر والشمس، ولكن لم يُرْضِ فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعدّدها وخضوعها لسلطان الظلام، فعدل عنها، والتمس عقله الطريق إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة، هي قوة الله الذي فطر السمواتِ والأرض وقَهرها، ثم اتصل بعقله وحي الله وهُدَاه.

* * *

وقد عبد الناس قُوًى كثيرة، إما عبادة أصِيلة، وإما لاتخاذ عبادتها زُلْفَى وتقرُّبًا إلى تلك القوة العظمى القاهرة التي يدركونها بفطرتهم.

عبدوا الأشباح والأرواح والجمادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مَثَلٌ لها أو مظهر من مظاهرها. بل عبد بعض الناس بعضًا ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية، ثم قتلوا من عَبَدُوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التي ظنوها فيه.

قصة إله زنجي

ومِن أعْجب ما شاهدتُ من عبادة الإنسان للإنسان، أنني جالست قبل نحو أربعين عامًا إلهًا من آلهة الزنوج في جبال النُّوبة بأقصى الجنوب من كردفان[1]، فكنا على الأرض نَتَفَيَّأُ ظلالًا وارِفة لشجرة

(١) كان ذلك سنة ١٩٣١ في جبال النوبة من جنوب كردفان.

من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة، وجَمعٌ من الشعب رجالًا ونساءً عرايا يرقصون ويطربون في حضرة الإله ويسمونه «الكُجُور». وهذا الكجور سواء أكان هو الإله أم رَمْزَه، هو عُرْفًا المعبود الذي يُرفع إليه الدعاء، وتُقدم له القرابين، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية، له كل تقديس، فهم يطعمونه ويَهبُونه ويتزلفون إليه مُقابِلَ أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسائمتهم، وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض.

ولم أستطع أن أتبين إن كان في نظرهم إلهًا كاملًا أو كأصنام الجاهلية، يعبدونهُ زُلْفَى لمن هو أعظم في نظرهم.

جاءت زوجة «الكجور» ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجواري، ومدّت ساقها فأرتني آثار ضرب بها، فقال المترجم: إن بعض العامة ضربوها، وهي تشكو إليك ظانّة أنك الحكومة، فقلت: كيف وهي زوج «الكجور» وهو إلههم المتصف بالقدرة عندهم؟! فقال: إن القداسة لا تشمل الأسرة، وحقوقه شخصية فقط، وأهله مثل جميع الناس.

فقلت لصاحبي: إن هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب أعلى الأمثال في الديمقراطية والمساواة.

ومن عجيب أمر القوم أن للكُجور حقوقًا يقابلها واجبات، فإذا امتنع عن أداء الواجب قتلوه، فمثلًا: إذا أجدبت الأرض وهَلَك الزرع سألوه المطر، فإن أبَى وتأخر المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء، فإن مرّت السنة وأجدب ما بعدها، ولم يستطيعوا أن يقنعوا كجورهم ليأمر المطر برحمتهم، فإنهم قد ينتظرونه مواسم أُخرى ثم يقتلونه أو يرجمونه ويقيمون غيره، ممن يعرفون فيه بالوراثة والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق، فيُحِلُّونه محله.

وأعجب ما في نوادرهم ما رُوِي لي أنهم شكَوْا أحد الآلهة مرة إلى الحكومة؛ لامتناعه عن الإتيان بالمطر، ولم يتركوا موظف الحكومة حتى أمر بحبسه، واستمروا هم ينتظرون أيامًا، فإذا بالكجور يطلب من الحاكم أن يطلق سَراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة، وما إن انطلق من الحبس وسار بالشعب نحو الجبل حتى هطلت الأمطار غزيرةً؛ فهم لا يشكُّون في قدرته ولا يظنون به العجز، وإنما يظنون به القصد السيئ.

ذلك مَثَلٌ من فكر البشر في سذاجته، وفكرُ البشر حتى في حضارته أحيانًا لا يكون أعلى كثيرًا. فقد عبد العجل والقط والصنم والنار، وبعض البشر، وغير ذلك!.

التوحيد وهو السبيل إلى الوحدة العالمية أعظم أسس الدعوة المحمدية

وكانت الدعوة المحمدية إلى الوحدانية غريبة لدى العرب وغيرهم، رغم ما يظهر الآن من بداهتها، واستقامتها. وكانت الحاجة شديدة لداعي التوحيد ليَسْمُوَ بالعقل الإنساني إلى النظر في الكون والمخلوقات، والتوجّه إلى خالقها جميعًا لاستمداد العون واستلهام الرُّشد.

وإذا تقصَّيْنا سيرة الرسول في مكة، وتأملنا التنزيل في تلك الفترة، رأينا «محمدًا» قد وقف قلبه وجهده، ووهب حياته وحياة أنصاره لتمكين هذه الدعامة الأولى وإظهارها، وقد خاصم أعداءه وهادَنَهُم، ونَفَرَ ورَضِي، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمةٍ سَوَاءٍ، هي عبادة الله لا شريك له ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولم يقبل في دعوته إلى الوحدانية من المشركين وعبدة الأوثان هَوادَةً أو مساومة، رغم أنه كان يجادل الجميع، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب، يقول القرآن ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويقول في النصارى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢] ويقول قولًا عامًّا في جدال الجميع ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

التسامح هو السبيل إلى الوحدة العالمية

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع المِلَل الكتابية حدًّا لا يعرفه أهل هذه الملل، حتى في هذا العصر، الذي انتشر فيه اللادينيّون، ولا يقبل مثله كثيرون من المتديّنين في الملل الأخرى، فلا تتسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم.

انظر إلى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الإيمان بالله لا شريك له، وفي سبيل التوحيد تسهل كل العقبات، وتتساوى القبائل والشعوب جميعها حتى الأديان، لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

دين واحد لأمة واحدة

فرسول الله في دعوته إلى الإيمان بالله الواحد الخالق لم يَدَّع أنه مُبْتَدِع، بل قال إنه مكمِّل للشرائع السابقة، ومعيدٌ للحنيفيّة الفطرية التي هي دين إبراهيم، بل دين نوح وآدم، وإنه لا تبديل لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله، ويترتب عليه وحدة خَلْقه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢]، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

ولم يختلف الرسول ﷺ مع أهل الكتاب إلا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك؛ ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخاصم، ولم يصالح أو يهادن أحدًا على حساب دعوته هذه؛ لأنها أساس رسالته وغايتها، بل غايةُ الوجود: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ١ ـ ٣].

وهذا التوحيد الذي دعا إليه فضلًا عن سموه بالعقل البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم، كما يظهر من الفصل التالي.

* * *

آثار التوحيد

بيَّنا أن الإيمان بالله وحدَه لا شريك له هو الهدَفُ الأسمى للدعوة المحمَّدية، والله سبحانه قد سَمَّى المؤمن به وحده مسلمًا: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

وإذا تصفَّحْنا آيَ الذِّكر الحكيم نجد الدعوة إلى التوحيد والتَّنْزيه لا تخلو منها سورة، بل تكادُ لا تخلو منها صفحة من الكتاب تصريحًا أو تَلميحًا.

التوحيد روح الدين

وحِكمة ذلك واضحة؛ إذ الإيمان بالله وحدَه يتفرع منه كلُّ ما في الدعوة من صلاحٍ وإصلاح، وهو الرِّباط الذي يجمع شتاتها ويُوَثِّق بين أجزائها، بل هو فيها بمقام الروح للجسد، يتحلل ويَبْلَى ويندثر بفراقها، والشرائع من غير إيمان كالقوانين الوَضْعِيَّة، تسقط بسقوط القائمين عليها ويذهب أثرها بذهاب الظروف التي أحدثتها.

هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي

لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له هو الحدّ الفاصل بين الناس، وليست العناصر والأجناس حدودًا بينهم، بل ليس الانتساب إلى الدين الإسلامي نفسه وعدم الانتساب إليه حدًّا؛ إذ بينما هذا الدين يرعى كنيسة المسيحيين وَبيْعَة اليهود إذا دخلت في ذمَّته، ويأمر المسلمين بالقتال لاحترام حرية عقائد المُعَاهَدين من أهل المِلل الكتابية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، وبينما هو يكتفي ممن يؤمن بالله من أهل الكتاب بضريبة قليلة على القادرين من الذكور مُقابل حماية نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ودِينهم وعُرْفهم، ضريبة هي رمز لعَهدهم، يستعين بها المجاهدون على الرِّبَاط في الثُّغور، ويأمَن المُعَاهَدون بها على ديارهم وعقيدتهم. وقد ردّها خالد بن الوَليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نصارى حِمْص حين أجلاه الروم عنها، وقال ما معناه: إنما أخذناها لحمايتكم وقد عَجَزنا عنها[1].

(١) وعلى رواية أخرى إن الذي ردها هو أمير الجيش أبو عبيدة عامر بن الجراح.

الإشراك سبب لإهدار كرامة المشرك وشخصيته

نقول بينما الإسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس، إذا به يفرق بينهم وبين المشركين، ويعامل هؤلاء معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم، ولو أنه يفي لهم أيضًا بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم حقًّا أو تدفع إلى ظلم، كما حصل في حلف النبي لخزاعة وصلح الحديبية كما سيأتي؛ إذ العداوة معهم دائمة لوجه الله وصالح البشرية، حتى يكون الدين كله لله.

ومن ناحية أخرى نجد الإسلام يُدْخِل الكتابية في الأسرة المحمدية، فَيُبِيحُ مُصاهرة أهل الكتاب ويجعلهم خُؤُولة للمسلمين، وهو لا يقبل مثل هذا النَّسَب مع المشركين، ويأبى أن يعترف لهم بهذه الميزة ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

كل هذه الشدة مع الوَثَنِيِّين والمشركين ليست تعصُّبًا أعمى ولا إفراطًا في العصبية الإسلامية، فلو كانت كذلك لساوَتْ الدعوة في المعاملة بين أهل الأديان الأخرى جميعًا، وقد لَقِي الإسلام من العَنَتِ والأذَى من أهل الكتاب كثيرًا، ولكن ذلك لم يُخْرِج الدعوة عن التّمييز بينهم وبين المشركين؛ ذلك كلُّه لأن عقيدة التوحيد هي غاية الحياة الإنسانية، وسبيل الإصلاح المنشود، فمتى آمَنَ العبد بأنه أَثَرٌ للبارئ الأعظم، كان بينَه وبين خالقه ما بين الصانع والمَصنُوع من الصّلة، وكان بينه وبين المصنوعات جميعًا ما بين الآثار المتعددة للمُنْشئ الواحد، وكان هذا الارتباط المعترَفُ به اعترافَ إيمان بين الخلق والخالق رِباطًا لا يَنفصِم، يستمر به العُمران والإصلاح والخير على وَتيرَةٍ واحدة مصدرُها الإذعان لإرادة واحدة، وكان بذلك وجودُنا جميعًا في هذا الكون متّصل المبدأ متّحد الغاية، ومتى امتلأت النفوس بذلك سهل كل شيء.

فلو تصورْنا الناسَ على إيمان كامل كهذا، يؤدُّون ما عليهم وَفْقَ هذا الإيمان، لأمكن أن نتصور أقدرَ المخلوقات على الفساد، وهو الإنسان، أصلحَها؛ إذ هو حينئذ لا يحتاج لوازع ولا هادٍ إلا من إيمانه، بل لأمكننا أن نتصور هذا العالَمَ ولا حُكْمَ ولا حكومة فيه إلا لوِجْدانِ المؤمنين؛ لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له الشغلَ الشاغلَ لصاحب الدعوة، وكان في الحقيقة سببَ نجاحها واستقامتها؛ فإزالة الشِّرك يتبعُها هدم مفاسده، وإقامةُ التوحيد يتبعها قيام فضائله.

* * *

الشرك طارئ على الفطرة وباعث على الظلم والاستبداد

تُقَرِّر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده، ثم ضلّوا، فإذا عادُوا لها استقاموا. وإذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنا الشِّرك في الغالب نتيجة لبِدَعٍ أحدثها الناس،

فعدّدُوا الآلهة ونوّعوها، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قُوَّامًا على الآلهة وسَدَنةً وحُرّاسًا، بل وكلاءَ ونُوَّابًا، واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطانًا لهم، ثم تآمر ذَوُو الأغراض فتساندوا على تضليل العامّة، وانتهَوْا بوضعهم في أَسْر مجموعة من الخُرافات والسَّخافات، وكأن الكهنة وأَضْرابَهم من القُوّام والوكلاء والمرشدين خزنة الأسرار الدينية هم في الواقع الآلهة المتصرّفون في المجموعات البشرية المأسورة.

فأول أثر يبدو للشرك في تاريخ البشر، هو أن العُبُودِيَّة للصنم انقلبت إلى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم، وقامت عهود من الاستبداد دامت في مصر والعراق آلاف السنين، ولم يَخْلُ منها ركن من أركان العالم من فجر التاريخ إلى اليوم، ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال؛ فإن الشِّرك والاستبداد حليفان متلازمان.

أما التوحيد الصحيح فيتبعه الإنصاف ويلازمه كالظل للشواخص؛ لأن الإله الذي دعا إليه الأنبياءُ ومحمد ﷺ منزه عن الهوى والغَرَض، لا يريد من خلقه رزقًا ولا طعامًا، وليس له وكلاء ولا نوابٌ ولا وُسَطاء، يقول ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، هو الرحمن الرحيم، هو الغنيّ القدير، هو البَارئ المُصوِّر، هو العَفُوّ الغفور، هو المُعْطِي المانع، هو الحَكَم العَدْلُ، هو المنتقم الجبّار، هو العليم الخبير، هو المسيطر فوق عباده، العزيز الحكيم.

كلّ هذه الصفات وما معها من تَنْزِيه عن الشَّبِيهِ والمَثِيل جعل الأُلُوهِيّة في وضع يعلو بها عن الاستغلال السّيئ، وجعل الخلق تحتها متساوين في حكمها، أكرمُهم عند الله أتقاهم، وأقربهم أبرُّهم بالعباد، وكما أن الظلم والأَثَرة ملازمان للشركِ، كان الإنصاف والعدل والمساواة ملازمين للتوحيد؛ لذلك كانت غاية الدعوة المحمّدية الإيمان بالله وحده، وهو عندها فوقَ كلِّ شيء، ويقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

آثار التوحيد في تزكية النفس

والإيمان الخالص من الشوائب، الصادرُ من القلب، تتبعه حتمًا جميع الفضائل المتعارَفِ عليها؛ لأن المؤمن من يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه إليه وحده؛ فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد، ومتى وجد هذا الإنسان فقد وُجد الإنسان الكامل.

فلو أن مجتمعنا تكوّن من مثل هذا الإنسان لقام على الرحمة والمحبة؛ إذ من وصايا الإسلام «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه»، «الراحمون يَرْحَمُهُمُ الرحمن»، و«ارحمُوا من في الأرض يرحمْكم من في السماء»؛ فهو إذًا المجتمع السعيد.

الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابَقَةٍ لطبائع الناس عوَّلت في الإصلاح على الإيمان والشَّرْعِ الذي ينظم ما قصدت إليه من إحسان، وجعلت الوازع من يختاره المؤمنون؛ لينفذ ما شَرَعتْ، فضَمِنت بذلك استقامة الأمور، وهيهات أن تصل البشرية إلى حكومة الوِجدان التي توحيها عقيدة التوحيد!.

قلنا إن الإيمان بالله يتبعه حتمًا تَغَلُّبُ جميع الفضائل في نفس المؤمن، فهو لا يعيش لنفسه، بل لإخوانه من مخلوقات الله جميعًا، ويكاد يَمَّحِي في النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه، وأولُ ما ينمو فيها هو الإيثار والفداء والتضحية في سبيل الخير العام.

فالمؤمن لا يكون ظالمًا؛ لأنه يعارِض بالظلم صفة من صفات الله وهي العدل؛ ولا يكون غليظًا قاسيًا، وخالقه هو الرحمن الرحيم، ولا يكون كاذبًا ولا مُخادعًا ولا منافقًا؛ لأن حِسابه مع الله العليم الخبير الذي: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، ولا يكون ذليلًا أو جبانًا؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يفيدُه ما دام الأمر بيد الله.

وهكذا إذا استرسلنا في تَعْداد النقائص نجد أنه حِيلَ بينَها وبين الموحِّد بِحجَاب الإيمان، ونجد الصفات الساميَة جميعًا محبّبَة إلى النفس المؤمنة المطمَئِنّة التي دخلت في عباد الله، ودخلت في رحمته حين لبّت نداءه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

هذه النفس المطمئنة بالإيمان تَحْيَا في سعادة لا يتذوقها إلا الموحِّدون، ويمكن لأمثالنا ممن يعيش على هامش الإيمان ويسأل الله الهدى، أن يتصوّر النفس المؤمنة تكون في الجنة فِعْلًا في هذه الدنيا؛ لأن السعادة الروحية التي تتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متاع.

* * *

التوحيد وصلاح الفكر والحياة

هذا الإيمانُ بالله وَحْدَه الذي قلنا إن الفضائل تتبعه حتمًا، وإنه يطهّر النفوس من الشر والرذيلة، يسمو كذلك بالعقل البشري؛ فالوثنية والشرك يَشْغَلَانِ الذّهن بالمحسوسات، ويحصرانه في نِطاقِ الأباطيل الصادرة عن دَعَوات السَّحَرة والكَهَنة وطوائف القائمين على الآلهة المجسَّمَة، أو على الآلهة المُقسَّمة الموزعة السُّلْطات والمتنافسةِ عليها، فتَطبعُ في أذهان الناس صُوَرًا مما هم فيه أو ما يهبطون إليه من الخُرافات، بينما يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك؛ فهو يدعو للتفكير والنظر وتحكيم العقل؛ فالإله

الذي دعا إليه الإسلام يجمع السّلطان والفضائل، وهو مع الناس أينما كانوا، لا وَسيط له، ولا يَنالُونه بِحِسٍّ، فلا بد لهم من التفكير فيه، والاستدلال عليه بآثاره، مما يدعو إلى تعلّقِ العقل بمصنوعاته.

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية في هذا بادِيةً في أقوال الرسول ﷺ وأعماله، كما ردَّدَت آيات الكتاب الكريم الدعوة إلى النظر والتعقّل، فاستهزأت بالمقلّدين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لاذعة قارصة، وامتدحت المفكّرين والباحثين والذين يُحسنون استخدام مَلَكَاتِهم في النظر في الكون واستنباط الحقائق من مقدماتها وآثارها.

ومن العجيبِ أن الشّرك الذي صرعتْه الدعوة المحمدية في جزيرة العرب في أيام الرسول وفي غيرها من بعده، وترتّب على هزيمته ظهورُ الفضائل التي أشرنا إليها ملازمةً للإيمان بالله لا شريك له، لم يكن سهلًا هيِّنًا كما يُظَنّ، بل كان شرًّا مُستطيرًا وبلاءً مستأصِلًا يقول الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤ ـ ٧].

أثر التوحيد في تحرير العقل وسمو الحضارة

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشّرك قد أزالت العَقَبة الأولى في سبيل السُموّ بالنفس البشرية كما بينا، ورفعت الحَجْرَ عن عقول تحجّرت، فانطلقت للنظر والتبصّر، وبدَتْ آثار ذلك مُسرِعة، حتى كادت الدعوة المحمدية أن تكون في ذاتها مُعجِزة؛ فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد ﷺ في دعوته مقطوعُ النظير، فلا يُعْرَف في تاريخ البشر نجاح كالذي لَقِيه.

ومن المتَّفَق عليه أيضًا أن دعوته كانت غريبة مُنْكَرَةً في نظر القوم، وقد لَقِيت من العِناد والاستهزاء والاستنكار ما تَفِيضُ به حوادث السنوات العشرين التي قَضَاها ﷺ وهو يَجْهَر بها بعد أن أخفاها في بادئ أمرها.

وكما كانت الدعوة إلى التوحيد غريبة فإن أثرها في النفوس وما ترتب عليه في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غَرابة. فالأَعراب الذين وأَدوا بناتِهم، واعتزُّوا بسَفْك الدماء والنَّهْب، صاروا الخُشع الرُّكَّع الذين يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا. والأسرة التي كان يَرِثُ فيها الرجلُ زوجات أبيه، صارت الأسرةَ المُطَهَّرة، والقبيلة التي كانت لا تعرف حقًّا إلا لعَصَبيتِهَا، ولا تَرْعَى ذِمَّة إلا لمن هو منها، صار فيها من يَرُدُّ إلى نصارى «حمص» أموالَهم؛ لأنه عجز عن رعاية ذِمَّتهم. والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشَون في الحق لَوْمة لائم. ومن الجُفَاة القُسَاة صار الخليفة

الذي تردُّه امرأة في مَجْمَع الخَلْق، فيقول: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»! ويكتب إلى أكبر وُلاَتِه الفاتحين متهكّمًا: «متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!» لأن ابن ذلك الوالي أساء إلى مسيحيٍّ في مصر.

لا يصح الاحتجاج بالواقع السيئ

فإذا قال قائلٌ: وما بال فساد الحال ضاربًا أطنّابه على الدنيا اليوم، والمؤمنون مِلْءُ الأرض؟.

قلنا: ما قاله الله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وما قاله الرسول: «والله لا يُؤْمِن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمَنُ جارُه بوائقه».

فهل أَمِنَ أحدٌ من أهل الكتاب في الغرب أو الشرق بوائق جارِه؟ وهل أحبَّ مُسلمٌ لأخيه ما يحبّ لنفسه؟.

ولا تزال الإنسانية في هذا البلاء، وهذه الحروب، وهذه الفُرْقَة بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم، حتى تملأَ مبادئُ عقيدة التوحيد قلوب الناس.

* * *

الإحسَان

رديف الإيمان

الآنَ ننتقل إلى الدِّعامة الثانية للإسلام وهي الإحسان، والإحسان في نظري هو العمل الصالح، وقد جاء في الآيات رَدِيفَ الإيمان، بل يكادُ يلازمُه في كل آية.

تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها

والشَّرِيعة الإسلاميّة كلُّها ما هي إلا بيانٌ بالأمْر أو النَّهْي أو الإباحة للأمور التي بها يكون العمل صالحًا، وهي فَرِيدةٌ بين الأديان في وضع الأصُول والفروع لهذا الإنسان؛ ففي جميع علاقات الإنسانِ بالله ومخلوقات الله رسَمت الشريعة بشيءٍ من التّفصيل قواعدَ الحياة وأساليبَها للمسلم، وهذه القواعدُ منها ما يختصّ بالعلاقة بين العبد وربِّه من صلاة وصوْم وحجٍّ مما يَتْبع الإيمانَ وما يقتضيه من عبادات.

وكلُّ ما نحتاج أن نُشِير إليه منها في مثل هذه الأحاديث هو أن هذه العباداتِ ـ مع تَزْكِيَتها للنفس وتطهيرِها للبدَن، مما يعُودُ أثرُه على المسلم في شخصه ـ هي كذلك مجموعَةُ نُظُمٍ تُعِين على حُسن العَلاقات بين الفرد والجماعة، وتُيسِّر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافُل الذي لا بد منه للجماعة الصالحة، بل تُحَرِّضُ في كل لحظة على التعاون البشري الذي هو أساس العُمران.

وليس أدلَّ على ذلك من الأثَر الذي أحدثتْه هذه العبادات في نفوس قوم من الأعْراب وأَضْرابهم من الأمم المتبدّية، كانوا أبعد النّاس عن الأُلْفَة والتعاون، وأدناهم للأَنانيَّة والشرّ.

أثر سريع لتطبيق نظم الإحسان

ففي بِضْع سنين أصبح الجُفَاةُ النافرون، وقد عبدوا الله على الكَيْفِيَّةِ التي سنَّها صاحب الدعوة، أهلَ نظام وتَقْوَى، يركعون ويَسجُدُون لله، ويأْتَمُّونَ برَجل منهم، ويؤَدُّون ذلك باطِّرَادٍ في أوقات محدَّدة، فتعوَّدُوا النظام والطاعة والتكافل، وأصبحوا إخوانًا يَسْعى بِذمَّتهم أدناهم.

وقد دَهِشَ فعْلًا أولادُ عمومتهم الذين استمرُّوا على الشِّرك حين الْتَقَوْا بهم في «بدر» فرأوهم لأول

مرة في كتائبَ مرصوصة لا عهد للعرب بها، لا يتنادوْن بعصبيَّة مع أنهم من شَتَات العرب، بل شَتَاتِ الأعراب والعبيد والأحرار والبيض والسُّود، رابِطَتُهم في الله وأُخُوَّتُهم في الإنسانية.

فالعبادات على الكَيْفيَّات المختارة في الإسلام لها بلا شكٍّ غيرَ الرابطة التي تقوّيها بين المخلوق والخالق، آثارٌ عِدَّة في نفس الإنسان وحياتِه وعَلاقته بالناس؛ ولذلك كلِّه كانت عنايةُ صاحبِ الدعوة ﷺ بها عظيمة.

وفقهاء المسلمين حين عَلِموا أن الإسلام بُني على خمسة أركان، للعبادات ثلاثةٌ منها، قد أدركوا عِظَمَ هذه الأركان الثلاثة: الصلاة، والصوم، والحج في بناء الدِّين، وقد أفاضوُا في فضْل العِبادات المختلفة، بل في فضل كل صَلاة وَرَكْعة، مما لا حاجةَ معه لجديد، ومما يَعْرفه كل مسلم إن لم يكن تفصيلًا فإجمالًا، ولكنّ أكثرَ المسلمين مع شديد الأسف لا يعرفون عن دِينهم أكثرَ من ذلك؛ فلهذا أظنّ أن العناية في هذه الفصول بالنواحي الأخرى للإحسان والعمل الصالح أجدرُ وأنفع.

* * *

كان الرجل يأتي من أَقْصى البادِيَة فيجلسُ إلى سول الله ﷺ، يتلقَّى دعوته، فيقوم من بين يَدَيْه وهو أعلمُ بها ممن دَرَجوا اليومَ في أحضان الإسلام، ونشأوا في بيوت الدين، وليس ذلك لميزات الرسول ﷺ وبَرَكتِه وتأثير شَخْصِيّته فحَسْب، ولا لِأَنَّ هؤلاءِ الأعرابَ كانوا يختلفون عن أبنائهم عربِ اليوم، وإنما لأن الدعوة كانت بسيطة مُرَكَّزَةً في مبادِئَ عامّة مفهومة للكافّة، سَهْلة، تُلْقَى إليهم ليعمَلوا بها، وليسيروا على نَهْجها، ويَنْسِجُوا على مِنْوالها، ولا ليتحدّثوا عنها ثم يشتغلوا بالقشور إذ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ورضوا بالظاهر ففقدوا اللُّبَّ والجوهر.

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تَلَقِّي الدعوة ونَشْرِها، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فالدعوة بَسِيطة أساسُها الإيمان والإحسان، وهذا الإحسان هو العمل الصالح كما قلنا، وهذا العملُ الصالح هو مبادئُ عامّةٌ وعبادات تُلَقَّنُ كَيْفِيَاتُها في لَحَظات.

الرحمة والإخاء أساس الإحسان

أما المبادئُ فأصلُها جميعًا في الرحمة والإخاء، والرحمة صفةُ الله، وقد كان المسلمون في أول عَهد الدعوة يسمُّون الله «الرحمن»، حتى قال العامّة: إن محمدًا يَعْبُد إلهًا اسمُه الرحمن، والمسملون يَسْتَفْتِحُون كلَّ عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم، ويُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام والرحمة، فيقولون: «السلام عليكم ورحمة الله».

وآيات الكتاب شاهدةٌ على أنها أحبُّ الصفات إلى صاحب الدعوة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٨ ـ ٨٩]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، والأحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة «الراحمون يرحمُهم الرحمن»، «اِرْحَمُوا مَنْ في الأرض يَرْحَمكم من في السماء».

أساس العمران

هذه الرحمة التي هي أصلٌ من أصول التشريع في الدعوة المحمدية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، هي أساس العُمران، وما نُزِعت من قلب إنسان إلا صار خَرِبًا، ولا من قوم إلا كانوا وَبَاءً على الأرض، والتاريخ يحدّثنا عن طُغيان أقوامٍ نُزِعت الرحمة من صدورهم؛ فتركوا آثارًا فظيعة من الخَراب استمرَّت بعدهم قرونًا.

فمثلًا مَوْجات المُغُول مع «جنكيز خان» ومَنْ بَعْدَه لا تزال رغمَ مرور سبعة قرون باديةً آثارُها للعِيَان في أواسط آسيا وغربها، وقد شَهدتُها بنفسي في الأفغان وإيران والعراق، وستبقى أجيالًا كثيرة.

وجاء مِن بَعدهم أقوام مثلُهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نُزِعت الرحمة من صدورهم فعَاثُوا في الأرض الفسادَ، ولا تزال آثار الخراب الذي أحدثه بعض هؤلاءِ القساةِ من الأعراب مشهودةً في شمال إفريقية، وقد شهدتُها كذلك بنفسي بعد مرور مئات من السنين.

فالرحمة أساسُ العُمران، جاء بها موسى وعيسى ومحمد، بل هي رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعًا، ولم يَعْظُمْ شأنُ دولة من الدول إلَّا والرحمة صفةٌ من صفات القائمين عليها.

* * *

دفاع لا بد منه عن رحمة الأتراك العثمانيين

وقد يظنُّ بعض الناس بما يتناقلُونَ من أحاديثَ أو فكاهات عن بعض العهود الأخيرة للدولة العُثمانية أنها كانت دولةً لم تكن صفةُ الرحمة من مميّزاتها، وهو خطأٌ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق؛ فالعُثمانيُّون في أيام عِزِّهم ورثُوا الرحمة التي نزعها الله من قلوب العرب المتأخِّرين، فورثوا الدولة، وسادُوهم كما سادُوا الأوروبيين.

أمثال شعبية تشهد لهم

وقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في «بَسَرابْيا» من رومانيا على نهر «الدنيستر»، وقيل لي إن أمثلة الفلّاحين في هذه الأطراف النائية للمُلْك العثماني لا تزالُ تعبِّر عن رحمة التركي وعَدْله، ومنها ما يشير إلى أن العدل يُنْزَعُ مع الأتراك من الأرض، وقد لفَتَ نَظرِي في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رِحْلاتي المتعددة أمثلةٌ وأساطِيرُ لا تزال تشير إلى ما استقرّ في نفوس هذه الأمم المسيحيةِ من احترام التركيِّ المسلم كرحيم عادل.

وفي سنة ١٩١٧، كنت في ڤيينا، فرُوي لي أن البولونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانيّة إلى «جاليسيا» مَدَدًا للنمساويين وقتئذ، فسألت عن السبب، فقيل لي: إن عندهم نُبُوءة يعتقدونها عن بعض قدِّيسِيهم بأن علامة عزِّهم وظهورِ دولتهم مرةً أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور شمال الدانوب.

ومن العجيب أن هذه العساكر ـ ولو أنها جاءت مددًا لغاصبي پولندا ومقتسميها ـ فإنه لم يَمْض سنة على عُبورها «الدانوبَ» حتى استقلت پولندا حقيقةً مرة أخرى وعادت دولة مُوَحَّدَة.

هذه الأسطورة وغيرُها من الأمثال في لُغَات الأمم البلقانية جعلتني أتوسَّع في قراءة التاريخ الإسلاميّ في البلقان، وقد خرجتُ من قراءتي ومُشاهداتي بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكَّنا للعثمانيين في أوروپا.

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غَيْبُوبَتها وهَمَجيّتها وقسوتها، وعرفت المساواة والإنصاف. ويكفي أن تعلم أن اسْتِرْقاق الطوائف بأشنعِ صورة كان نظامًا دوليًّا متعاهَدًا عليه في أوروپا الوسطى والجنوبية إلى أن قضَى عليه العثمانيُّون.

أثرهم في زوال عهد الإقطاع من أرض الملداف والبولونيين

وكانت هناك عهود دولية بين المُلْداف والبولونيين والمَجَر لتسليم كل فلاح يرحلُ من مَزرعة سيده من «البويار» إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تُبَاعُ بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيّون إلى أوروپا يحمِلُون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحبُ الدعوة ﷺ، ولم يكن الأتراك أكثرَ عُدَّة ولا عَدَدًا من أيّةِ أمّة من الأمم التي سادُوها، فوَصلُوا على رؤوسهم جميعًا إلى ڤيينا، تُمَهِّدُ لهم الرحمة صعابَ الجبال والبحار والوِهاد، كما مهدت للعرب قبلَهم إفريقيّة وآسيا.

موقف عظيم لشيخ الإسلام في عهد السلطان سليم

وكان للأتراك مَلِك شديد، هو السلطان سليم، عُرف بالقسوة وذَبَحَ كثيرًا من آل بيته، ويلقِّبُه الأتراك أنفُسهم بسليم القاسي، فخَطَر له أن يوحّد دينَ الدولة ولغتَها، فأبَى عليه شيخُ الإسلام، فامتنع حُرْمةً لوصايا الإسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم، وذلك من أثر الرحمة التي أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه، والتي هي ركن الإسلام المتين وصفة الله التي إذا نُزِعَتْ من الصدور دالَتْ الدولة، وعم الخراب، حتى يَسْتَخْلِفَ الله أهلَ الرحمة.

انظروا إلى العالم اليوم، وقد نُزِعت الرحمة من الصدور؛ ألَمْ ينقلب الإنسان شرًّا من الوحش الضّارِي؟ ألم يسبق المتحضرون في القسوة جنكيز خان؟ أليست الغارات الجوّيّة على المَدَنيِّين أسوأَ ما بلغه الناس من التوحّش؟ ثم أليست هذه مقدماتِ الخراب العامّ؟

رحمة الحيوان

هذه الرحمةُ التي أرسل الله محمدًا من أجْلها، ليست خاصّة بالإنسان، وليعلم القارئ مكانتها من الإسلام، نَقُصُّ بعضَ أحكام الشريعة في الرِّفق بالحيوان؛ ليتبين مَدَى عناية صاحب الدعوة ﷺ ببث الرحمة في دعوته.

قال ﷺ «بَيْنما رجلٌ يمشِي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطَشُ، فوجد بئرًا فنزلَ فيها فشَرِب ثم خَرج، وإذا كلبٌ يَلْهثُ، يأكُلُ الثَّرَى من العطش؛ فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كانَ بَلغ مني؛ فنزل البئر فمَلأَ خُفَّه ماءً، ثم أَمْسكه بفِيه حتى رَقِيَ، فسَقَى الكلبَ، فشكر الله تعالى له فغفر له». فقالوا يا رسول الله: «وإنَّ لَنَا في البهائم لأجْرًا»؟ فقال: «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجْرٌ».

وقال أيضًا «دخلتْ امرأةٌ النارَ في هِرّة ربطتها فلم تطعمها، ولم تَدَعْها تأكلُ من خشَاشِ الأرض».

وقد جاء الإسلام بالنَّهْيِ عن كثير مما كان يأتيه العربُ، وكان من عادة العربيّ أن يعذب الحيوان كشقِّ آذانِ الدوابّ، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها إذا مات لتموت معه، وغير ذلك.

وحرَّمت الشريعة رَمْيَ الطيْر للتلهّي، وعَبَث الأولاد بالطيور، والتحرِيشَ بين الحيوانات كما يفعل الإسپانيون مع الثيران، وبعضُ الأمم بين الديوك والكلاب، ومنعت إثْقالَ الحِمْل على الدابّة، وأوجبت حُسنَ رِعايتِها وسِقَايتِها، وإلا فللقاضي نزعُها من صاحبها.

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ في البدْو والمتوحشين؛ فقد رُوِي أن عَدِيَّ بنَ حاتم، وقد مَلك الإسلامُ قلبَه، كان يَفُتُّ الخبزَ للنمل، ويقول: إنهن جارَاتٌ ولهنّ حق.

ورُوِي عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي أنه كان يمشي في طريق يرافقه بعض أصحابه، فَعَرَض له كلب، فزجره رفيق الأستاذ، فنهاه وقال: أما علمتَ أن الطريق مشترك بيننا وبينه...؟!.

وفي الحديث «إذا رأيتم ثلاثةً على دابّة فارجُموهم حتى يَنزِل أحدهم».

وكُتب الفقه تَفِيضُ بأحكام الرِّفق بالحيوان، مما يُشير إلى مقدار ما قصدت إليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله. فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها، بل هي المقصودة من إقامة الدولة، وخيرٌ للناس أن يَلْهُوا بغير صلاة وصوم وحج، وخير لهم أن يعيشوا بغير مساجِدَ وبِيَعٍ وكنائسَ إذا نُزعت الرحمة من صدورهم؛ فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان إلى خداع وظلم.

فاللهم أَنزِل الرحمة في الصدور حتى يُصْرَف البلاء عن العالم!.

* * *

الإخـاء

نبسط الحديثَ في هذا الفصل عن الأساس الثاني للإحسان، وهو الإخاءُ الذي صار دعوة عالمية محببة لدى أهل هذا العصر جميعًا.

كان المُجْتَمعُ العربيّ قد قسَّمته العصَبِيَّات القَبَلِيَّة والقسوة الفردية، وكان المُجْتَمع الإنساني قد سادته كذلك العصبيّة والجنسية والفخر بالأنساب حين جَهَر الرسول بالدعوة إلى الإخاء صادِعًا بنداء الله:

آية هي دستور الإخاء البشري

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد نادى بالإخاء قَسيمًا وَقَرينًا للرحمة، وقرر أن بهما تُقْتَحَمُ العَقبة، ويسعد الناس ويدخلون الجنة ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١١ ـ ١٧].

وآيات الكتاب الكريم، والأحاديثُ في الترغيب في الإخاء والرحمة مستفيضة.

تصوير عجيب لموقع البر لدى الله

وفي حديث قُدْسِيٍّ إن الله ﷻ يقول يوم القيامة «يا ابْنَ آدم، مَرِضْتُ فلم تَعُدْنِي! فيقولُ ابن آدم: يا ربّ كيف أعُودُك، وأنت ربُّ العالمين؟! فيقولُ الله: أمَا عَلمتَ أن عَبْدِي فلانًا مَرِضَ فلم تَعُدْه؟ أمَا إنَّك لو عُدْتَه لوجَدْتَنِي عنده! يا ابنَ آدم، استَطعَمْتُك فلم تُطْعِمْني! فيقول: يا ربِّ كيف أطْعِمُكَ وأنت ربُّ العالمين؟! فيقول الله: أما عَلِمْتَ أنّ عبدي فلانًا استطعَمك فلم تُطْعِمْه؟ أمَا إنَّك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي، يا ابن آدم، اسْتَسْقَيْتُكَ فلم تَسْقِني! فيقول: كيف أَسْقِيك وأنت ربّ العالمين! فيقولُ: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أما إنك لو سَقَيْتَه لوجدتَ ذلك عندي».

انظر إلى هذا المعنى السّامي في هذا الحديث الجليل؛ فإن الله مَع عباده في كل لَحْظة وحالة، وإن البِرّ

بالناس برٌّ بالله، وما هو في حاجة لبرّ، ولكنه لا يَرْضَى إلّا أن يكون كأنها البرُّ لذاته، ولذلك لا أظن أن منازعًا يستطيع أن ينازِعَنا في أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الإحسان في الدعوة المحمدية، كما أنهما الغاية منها؛ فهي لم تترك سبيلًا من الترغيب والترهيب إلّا سلكته لتَنْطَوِيَ النفوس على الإخاء والرحمة، وتَنفِر القلوب من الأثرة والأنانيّة، انظروا إلى هذه الآية فهي حتى في عبارتها تصْعَقُ بهَوْلِها غِلاظ القلوب:

تهديد شديد لذوي القسوة والبخل

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٦].

قدماء العرب وفهم الإخاء والمساواة

كانت الدعوة إلى الإخاء غريبةً كالدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى البعث، فأنكرها العرب الذين لا يعتزُّون بغير العصَبيَّة، ولا ينزلون للإخاء مع من هم أدنى، كالأرقاء والضعفاء. وكان لا بدّ من حملهم عليه؛ لأنه أساسيٌّ في نجاح الدعوة، ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزئون بجماعة «محمد» من المُسْتَضْعَفِين والعَبيد وقد تآخَوْا في الله مع السادة والأشراف إخاءً جميلًا، حتى حُكِيَ عن المتكبرين أنهم قالوا مثل قول نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧].

وقد أكد القرآن هذا المبدأ السامي ووسَّعه حتى شَمِل أُخوّة البشر جميعًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢].

إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب

ولما تَمكّنتْ دعوةُ الإخاء في النفوس، مَنَّ الله بها على المؤمنين كأكبر نعمة فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولم تكن الدعوة إلى الإخاء قاصرةً على المهاجرين والأنصار، ولكنها كانت عامة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

[آل عمران: ٦٤]، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

فالدعوة المحمدية قد قامت إذًا على رسالة للناس كافَّة لعبادة الله وحدَه، وليكون الناس أمةً واحدة، والأخوّة فيها هي أُخوّة العقيدة، لا تفرق بين الشعوب والقبائل، والأبيض والأسود والأصفر، ولا الغالب والمغلوب، ولا الأراضي والأوطان، بل تدعو إلى أخوّة حدودها البشرية، تحرّم الاعتداء، وتدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسَنة، حتى في حالة النّزاع مع المعتدين ورَدّهم عن عُدْوانهم بالحرب، فإن فكرة الأخوّة البشريّة تُتَّخذ أيضًا نِبْراسًا يَهْتدي به المؤمنون في ظلام الحرب، فهم لا يحاربون للفتح، ولا للسلب ولا للقهر وإذلال الناس، وإنما لحرية العقيدَة ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

حتى في حالة الحرب مع الوثنيّين، يعتبر الإسلام الأخوّة أصلًا في النزاع؛ فالمؤمن الذي يَعتقد أن الوثنيَة هي أسوأ ما يصاب به الإنسان في رُوحه وعقله ومصيره، إنما يريد للوثنيّ أن ينجوَ مما هو فيه، وما هو مُعَرَّضٌ له من غَضب الله، فإذا قَسَا عليه ليَرُدَّه عن كفره، فإنما يريد بذلك رَحْمته وهو معترِف بأخوّته كما قيل:

فقَسَا ليزْدَجِرُوا ومَن يكُ حازمًا فَلْيَقْسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَمُ

وهذا الوثني الذي يحاربه المُؤْمِن متى كان مُعْتَديًا، يستحِقّ من المؤمن جميع الحقوق بمجرّد تسليمه لله، ويصبحُ مساويًا له تمامَ المساواة؛ فهو إذًا لا ينازعه لنكران أخوّته، أو لعدم الرغبة في رحمته، بل لتمام هذه الرحمة أو هذه الأخوّة[1].

فنستطيع إذًا أن نقول: إن الرحمة والإخاء أصلان من أصول الدعوة الإسلامية، مقصودان لذاتهما ولأثرهما، حتى في أشد حالات النزاع والخلاف والحرب، وإن الأخوة العامة هي مقصد أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدَّعي بعضُ الأجانب، ولا كما يظن بعض الحَمْقَى من أن الإسلام دين حرب وقسوة وقهر.

---

(١) وجاء في سورة التوبة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦]، أي أنه إذا استجار بك أحد من هؤلاء المشركين الذى استباحوا أموال المسلمين وأرواحهم فأجره، وأسمعه كلام الله، فإن آمن فخير، وإن رفض الإيمان فاحمه حتى تصل به إلى المكان الذى يأمن فيه على نفسه واتركه!

وعليه فالإحسان أو العمل الصالح أن نسعى إلى الإخاء العام، وأن تكون الرحمة شعارنا وهَدْينا في كل زمان ومكان.

* * *

الإخاء معجزة الإسلام

وقد كان للدعوة المحمديّة أثرها العظيم في هذا، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوّة بين طوائفَ من البشر كانت أشدَّ الأقوام تَدَابُرًا وتناكُرًا وشِقاقًا. ولو قلبنا صفحاتِ التاريخ قبل الإسلام، ونظرْنا فيها إلى حال الأُمم التي دَانَتْ بالدعوة المحمديّة فيما بَعد، ما بين جبال الهِملَايا وجبال البَرانِس، في طول الدنيا شرقًا وغربًا، لأدركنا الأثر الهائل الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوّة والتَّرَاحُم في نفوس مئاتِ الملايين من البشر على مر هذه القرون.

بقايا الإخاء في العالم الإسلامي

ولا تزالُ هذه الأُخوة التي دعا إليها محمد ﷺ أحسن ما بَقي في نفوس مُسلِمي اليوم، رغم ما هم عليه من بُعْدٍ عن رُوح الإسلام، فهي متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تَجلَّتْ لابن بَطوطة قبل سبعة قرون، ولمن قبله ومن بعده.

ذكرى إخاء في ألبانيا

وقد شَعَرتُ بها لأوّلِ مرة في شبابي في جبال الأرنؤوط بألبانيا؛ فقد دخلت تلك البلادَ ولا عَهْد لي بها، ولا معرفةَ بأحدٍ من أهلها، وكان طريقي إليها من بحر الأدرياتيك، فنزلت «بكاترو» وذهبت إلى «سنتجه» عاصمة الجبل الأسود وقتئذٍ، وكان أهل الجبل في حالة حربٍ مع الدولة العثمانية، وكنت مُتَنكِّرًا بصفة مراسل لجريدة إنجليزية، أقصِد التَّطوُّع مع المدافعين عن «أشقودره» من الترك والألبان، فَلَمَحْت في المدينة اسمًا إسلاميًّا على دكان، فقدَّمتُ نفسي إلى صاحبه، وكأنما كُنَّا على موعد! رغم أن حديثنا كان بالإشارة، وما لَبِث أن جاء لي بفَقِيهٍ يعرف قليلًا من العربية فتفاهمْنا، وتولّى الرجل بعد ذلك أمري كلَّه حتى وصلت إلى «أشقودره»، وتنقلت في بلاد الأرنؤوط من الشمال إلى الجنوب، يوصي بعضُهم بعضًا بي. ولو كنتُ بين أهلي ما وجدت منهم حبًّا أكثر مما أوجَدَتْهُ لي الأخوّة الإسلامية في تلك الأيام العصيبة، أيام حرب البلقان، بل إنِّي لا أزالُ أذكر أنهم أوجدُوا لي في كل بلد مَن يَعرف العربية ومن يُلازِمني لخدمتي ومعاونَتي.

وهذه الروح ذاتها هي التي وجدتُها في شمال إفريقيّة أثناء الحرب العالمية الأولى، وهي التي لمستها في الهند حينما كان الناس يَحُفّون بي ويستبشرون، ولما علموا أن مصر صارَت دولةً مستقلّة، وأنني رسولُها إلى الأفغان فَرِحوا كأنما أيامُ عِزّهم قد أقبلت!

هذه الرُّوح الأخوية التي خلقتْها الدعوة المحمّدية، هي التي شهدتُها كذلك في إيران والأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها، وفي كل جَوْلَة من جَوْلاتي في بلد لا تزال للإسلام أو بقيَ فيها مسلمون، وهي التي يَخْرج بها مُعْتزًّا الأفغانيُّ من المشرق أو الفلاتى من أقصى إفريقية الغربية فَيَطْوِي آلاف الأميال سَيْرًا إلى مكة متوكلًا؛ لأنه يَمْشي من أهل إلى أهل، ومن إخوان إلى إخوان، حتى يَرِدَ المكانَ الذي جَهَرَ فيه محمد بالدعوة إلى هذه الأخوَّة العامّة.

كنتُ مرة قاصدًا من الرِّيَاض عاصمة نجد إلى مكة، وكان بينهما سَفَرُ خمسة أيام بالسيارة في ذلك الوقت، وفي اليوم الثاني لاحَ لي رجُلانِ يمشيان، فوجَّهت السائق ناحيتَهما، وسألتُهما أصْلَهُما وقَصْدَهُما، فلم يفهما لعُجْمتهما؛ إذ أنهما كان من «قندهار» بالأفغان، وكان موسم الحج مُقْبِلًا! فأدركتُ أنهما يريدان الحجَّ فشَقَّ عَلَيَّ أن أتْرُكَهُمَا وحَمَلتهما معي إلى مكة، وفي الليالي التي قضيناها بالطريق، رَغْمَ جهل بعضنا لغةَ بعض، كانت رُوح الأُخُوَّة ناطقة بكل حاسَّةٍ، ولولا هذه الأخوَّة لما طَوَى هذان الرجلانِ الأرضِ، لا يَمْلِكان شيئًا من الدّنيا إلا أنَّ الدعوة المحمدية قد آختْ بينهما وبين البلوش والفُرْس والعَرب ممن تنقلوا في أوطانهم.

نعم، إن هذه الأخوة تَضْعُفُ في أقطار المسلمين بضعف التديّن وقيام النَّعَراتِ الجنسيّة. وأعظم من ذلك بسيطرة المادّة على النفوس؛ فهي تكاد تَقْضِي على الأخوّة في البيت والأسرة الواحدة.

إخاء ليس له نظير

وقد كان أثر الدعوة المحمدية إلى الإخاء والرحمة أعظم ظهورًا في تاريخ المسلمين من أية دعوة مُمَاثِلَةٍ في التاريخ البشري، وإذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاوُنٍ، فإن هذه حالةٌ شاذّة سبّبُها دوامُ اضطهاد جماعتهم وتَشَتُّتُها ووجودها في حالة أقلية؛ لأن ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم، وليس العقيدة التي تدعو إلى الإخاء الإنساني، أما الأخوّة التي دعا إليها محمد ﷺ وأقامها الإسلام في النفوس، فكانت أعزُّ أيّامها أيام العزّ السابق، وقد حملها العثمانيُّون إلى شَرْقِ أوروبا، كما حملها العرب من قبلُ إلى غرب أوروبا ومجاهل إفريقيّة وآسيا، فكان الناس تحت رَايتهمْ سَوَاسِيَةً كأسنان المُشْطِ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقْوَى، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود الله. وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذِمَّة، لَهُم ما لِلمسلمين وعليهم ما عليهم، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة، وعليهم ما يقتضيه الإخاء.

والآن، وهذا العالم المضطرب يأكل قَوِيُّهُ ضعيفَه، والناس في أنكر صور القسوة يَتَقَاذَفُون بالهَوْل؛ ليَجْنُوا مغانِم وأسْلابًا لا شك أنهم في أشد الحاجة إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، ولظهور هذه الدعوة قوية عزيزة كما كانت، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومِن بَعْد.

* * *